آثار حضارة الفراعنة فى حياتنا الحالية

العادات المصرية القديمة الباقية فى مصر إلى الآن

تنتشر فى كل أمة من الأمم مجموعة من العادات والتقاليد ، يزاولها الأفراد فى كل وقت كأمر طبيعى سهل ميسور لا يمكن أن يكون مجالا للبحث والمناقشة . وشأننا فى مصر شأن باقى الأمم ؛ فنحن نجد أنفسنا محاطين بطائفة من العادات نراها ونلمسها فى كل يوم منبثة بين طبقات مختلفة من الأمة هى السواد الأعظم من أهل هذه البلاد ، بحيث أصبحت هذه العادات والمعتقدات دستورا عند العامة فى المدن ، وجميع أهالى القرى من الفلاحين والمزارعين .

هذه العادات تترفع عنها تلك الأقلية من المتعلمين فى هذه البلاد ، فيصفونها بالخرافات ، وإذا ترفقوا فى الوصف والتعبير سموها بعلم « الركة » ، وهم يعنون بذلك فن الترهات والأباطيل والخزعبلات .

ولكن هل جشم أحد هؤلاء المتعلمين نفسه ، فبحث عن أصل هذه العادات والخرافات والمعتقدات بحثا علميا ردّها جميعا إلى أصولها القديمة ، طبقا لقواعد علم « الفولكلور » ؟

الواقع أننا لا نعرف شعبا فى العالم أجمع أشد محافظة من الشعب المصرى على تقاليده وعاداته . فقد مرت على مصر أدوار مختلفة من التاريخ غيرت لغة البلاد ودينها عدة مرات ، ولكن الغزوات التى توالت على مصر لم تستطع أن تغير شيئا مما ورثه الشعب من التقاليد والمظاهر . قد يكون من المحتمل أن آلاف اليونان والعرب الذين استقروا فى البلاد قد تمكنوا من إحداث أثر ضئيل فى المدن الكبيرة التى استقروا فيها مجتمعين ، ولكن باقى البلاد التى تشمل آلاف القرى والدساكر بقيت محافظة على مصريتها الثابتة وتقاليدها القديمة دون أن يعتورها نقص أو تأثر . فالفلاح الحالى لا يزال يشبه أجداده

الذين عاشوا منذ أربعة آلاف سنة تمام المشابهة ، مع فارق بسيط هو أن الفلاح الحالى قد أصبح يتكلم العربية ويدين بالإسلام أو بالمسيحية ، أما ملامحه وطريقة معيشته وأدوات الزراعة التى يستعملها والمنازل التى يسكنها والعادات التى يزاولها والتقاليد التى يسير عليها ، فهى مصرية فرعونية فى روحها وشكلها . فما زال الفلاح يعيش هو وماشيته فى منازل مبنية من اللبن كما كان يعيش الفلاح فى العصر الفرعونى ، وما زال يستعمل فى فلاحة الأرض نفس المحراث والمنجل والمذراة وغيرها من أدوات الزراعة التى كان يستعملها أجداده الأقدمون ، وما زال يروى أرضه بنفس الشادوف الذى كان يروى الفلاح القديم أرضه به . فإذا جمع محصوله من الحبوب وضعه فى صوامع من الطين يقيمها فوق منزله كما كان يفعل الفلاح القديم تماما . وما زال هذا الفلاح الذى نراه اليوم خير خلف لسلفه العظيم فى صبره وجلده ، يعمل فى حقله طول ليله ويكد طول نهاره دون أن يدركه كلل ولا ملل . وهو فى وسط فقره يستعين عليه بروح المرح والدعابة . وما زالت السلال والمقاطف «والزكائب» التى تعرف «بالشنف» والحبال بل الأنوال التى يستعملها فى نسجه ، وكذا المنازل هى نفسها أدوات سلفه العظيم . وما زال فلاحنا قنوعا يكتفى من عيشه بالكفاف ، إذا جاع فكل ما يتمناه قطعة خبز يسد بها رمقه ، وهو كالفلاح المصرى القديم لا يختلف عنه فى مأكله ، لون الطعام الذى يوده ويهواه هو البصل والفجل .

فهذا الفلاح الذى وصفناه هو الذى حافظ على ما ورثه من تقاليد وعادات ظل يتلقفها من أسلافه ، وينقلها وديعة إلى خلفائه ، جيلا بعد جيل ، وقرنا بعد قرن ، حتى وصلت إلينا فى صور مختلفة من المعتقدات التى نطلق عليها الآن اسم علم « الركة » .

من المعروف أن قدماء المصريين كانوا يعبدون الشمس ، واستمرت عبادتها زمنا طويلا . ولكن الكثيرين سوف يدهشون عندما أقول إن أثر عبادتها لا يزال ظاهرا بيننا إلى اليوم . ففى بعض قرى الوجه البحرى لا يزال يقسم الأهالى بالشمس فيقولون : « وحياة الشمس الحرة » وفى جهات أخرى يحلفون بالشمس فيقولون : « وحياة البهيّة اللى تطلع من جبلها » . ومظهر آخر من هذه المظاهر يتضح فى عادة رمى السن إلى الشمس فيقول الصبى : « يا شمس

ياشمّوسه ، خدى سن الحمار وهاتى سن الغزال . » أما البنت فتقول : « يا شمس ياشمّوسه ، خدى سن الجاموسة وهاتى سن العروسة . »

وقد وحدت الشمس عند قدماء المصريين مع الجعل (الجعران) ، فسميت « خبرع » ، وإلى الآن نجد أهالى بعض جهات الصعيد إذا مرض أحدهم بالحمى المسببة عن ضربة الشمس ، خاط إلى طرف ثوبه جعلا ليأخذ الحمى .

وكما كان المصريون يعبدون الشمس ، فإنهم كانوا يعبدون أنواعا مختلفة من الأشجار ، كشجر الجميز والسنط والنخيل ، وكانوا يعتقدون أن الإلهة «هاتور» أو « توت » قد حلت فيها . وفى كثير من الرسوم نرى الميت وقد وقف أمام شجرة برزت منها الإلهة وهى تقدم له مائدة عليها قرابين مختلفة . فهذه العبادة لا تزال موجودة فى مصر إلى الآن يزاولها كثير من المسلمين والأقباط على السواء . فشجرة المطرية التى تعرف بشجرة العذراء هى بلا شك خلف لشجرة هليوبوليس المقدسة التى كانت تحل فيها الإلهة ويعبدها المصريون القدماء . وفى إحدى قرى الفيوم شيخ اسمه الشيخ صبر دفن فى مكان لاتقوم فيه سوى شجرة كبيرة يحج إليها كل ذى حاجة يريد قضاءها من أهالى البلاد المجاورة ، ويأتى لها المرضى من كل فج عميق آملين الشفاء من أمراضهم ، فيدق كل مريض فى جذعها مسماراً يلف عليه خصلة من شعره ، فإذا فعل هذا اعتقد المريض أنه سيشفى من مرضه لا محالة .

فهذه الأشجار ، وخاصة الجميز ، لا تخلو منها جبانة حديثة فى مصر أو ضريح من أضرحة الأولياء والمشايخ . وتعتبر الشجرة وأغصانها مقدسة ، أما أوراقها وفاكهتها فلها قيمة محترمة .

والقطط الآن عند العوام منزلة خاصة ؛ فهم يرعون جانبها ويحسنون معاملتها ويتجنبون ضربها . وهم يعتقدون أن الأرواح والجان يتلبسون أجسام هذه القطط ويظهرون بأشكالها ، وتفسير هذه الأفكار والمعتقدات الغامضة هو أن القطط كانت إحدى معبودات المصريين القدماء ، يعبدونها باسم الإلهة «باستت» .

ويعتقد العوام من الناس أن لكل منزل ثعبانا يحرسه ؛ فهذا الاعتقاد يرجع إلى أن المصريين القدماء كانوا يعبدون أحيانا ثعبانا كبيرا يظنون فيه الخلود ، ويعتقدون أنه يسكن حقلا أو غابة أو كهفا أو جبلا ويقوم على حمايته .

ولدينا بالمتحف المصرى تمثال ثعبان وجد بمعبد أتريب ، بنها الحالية ، ووضع هناك لحمايته .

أما ما نجده أحيانا معلقا على أبواب المنازل من تماسيح محنطة ، فإن هى إلا بقية من بقايا عبادة هذه الحيوانات فى عصر الفراعنة ، إذ كان التمساح إلها عبدوه وسموه « سبك » .

يعتقد العوام الآن أن لكل شخص أختا تحت الأرض أو قرينة تولد معه . فهذا الاعتقاد ورثناه عن الفراعنة الذين كانوا يعتقدون أن كل شخص له روح أو قرين أطلقوا عليها « كا » وكانت هذه الـ « كا » تعيش معه ، فإذا مات تبعته إلى المقبرة .

هذه كلمة عاجلة عن المعتقدات . أما العادات فكثيرة لا يدركها حصر ، فنقتصر على ذكر أهمها :

يحرص الفلاحون فى القرى على الإكثار من الأولاد والنسل حتى تكون لهم أسرة كبيرة وذرية ، وهم يبكرون فى الزواج بدرجة يستغربها الكثيرون . فهذه عادة ورثناها أيضا عن المصريين القدماء . قال الحكيم المصرى « آنى » فى وصية إلى ابنه : « اتخذ لنفسك زوجة وأنت صغير حتى تعطيك ابنا تقوم على تربيته وأنت فى شبابك ، وتعيش حتى تراه وقد اشتد وأصبح رجلا . إن السعيد من كثرت ناسه وعياله ، فالكل يوقرونه من أجل أبنائه . » أفليست هذه العبارات بألفاظها ومعانيها هى التى نسمعها كل يوم من أفواه المسنين من الفلاحين يوصون بها أولادهم ليل نهار ؟

نعيب على مواطنينا تمسكهم بوظائف الحكومة وتعلقهم بأذيالها ونحتقر قولهم : « من فاته الميرى اتمرغ فى ترابه » ، ولكننا ننسى أو نتناسى أننا ورثنا هذه العقلية عن أجدادنا . فقد ورد فى النصوص الفرعونية صورة خطاب كتبه أب لابنه يقول فيه : « بلغنى أنك أهملت دراستك وسرت وراء ملاهيك ، فهل تريد أن تكون فلاحا تشق وتكدح ! لا تكن فلاحا ، ولا تكن جنديا ولا تكن كاهنا ، بل كن موظفا يحترمك الجميع ، ويمتلئ منزلك خدما وحشما وتتربع فى مجلس الثلاثين إلى جانب رجال البلاط . »

ولطالما هزأنا بآلاف الموظفين وما يبدونه من ضروب المداهنة والمصانعة

للرؤساء ابتغاء مرضاتهم ، ولكننا نسينا أن هذا الداء مولود فينا توارثناه عن الآباء والأجداد . ألم يقل الحكيم « بتاح حتب » الذى عاش منذ خمسة آلاف سنة : « انحَنِ أمام من هو فوقك ، أمام رئيسك فى شؤون الإدارة الملكية حتى يستمر بيتك مفتوحا ، ويستمر رزقك وراتبك جاريا ، ولا تعصه فإن عصيان من بيده السلطة شر مستطير . »

ننادى الآن بالويل والثبور وعظائم الأمور إذا انتقل الموظف إلى جهة بعيدة ، ولكن يجب ألا نلام على ذلك ، فإن الاغتراب قد ولّد فينا كرهه حين ولدنا ، وورثناه ضمن التركة التى خلفها لنا الأجداد . ألم يَشْكُ هذا الموظف المسكين الذى نقل من بلده منفيس منذ أربعة آلاف سنة ، فكتب يقول : « إنى أجلس هنا بالجسم على حين تطير روحى إلى منفيس حتى تطمئن على الأحوال هناك وتستقر . إنى أجلس هنا ولست بمستطيع أن أقوم بعمل ، أى إلهى « بتاح » أحضر إلىّ وخذنى إلى منفيس ودعنى أرها ولو من بعيد . »

ثم إن الكثير مما نشكوه من عيوب يجرى فى دمائنا بحكم الوراثة من آبائنا الأقدمين . فتمسكنا بالمظاهر الكاذبة وما تحتمه من تبذير شديد عيب قديم فينا . ألا تخبرنا النصوص بأن الملك رمسيس الثالث الذى كان يعطى ١٨٥٠٠٠ كيس من القمح سنويا للمعابد ، هو بعينه الملك الذى كان لا يستطيع أن يرسل خمسين كيسا من القمح شهريا لعماله فى الجبانة ، وقد كانوا يتضورون جوعا !

أما كرم المصريين وإسرافهم فى الولائم والأفراح فهما موروثان أيضا . فلطالما شهدت قاعات منازل الأثرياء فى عصور الفراعنة ولائم رائعة كان يدعى إليها عشرات الصحاب والخلان وتتخللها الموسيقا والرقص والغناء . وكان المصريون لا يدخرون وسعا ، كما نفعل اليوم ، فى تقديم الكميات الوافرة من اللحوم وألوان مختلفة من ألذ أنواع الطعام ؛ إذ كانت تقاس عظمة الداعى بكمية ما يقدمه من طعام . فإذا حان وقت الطعام غسل كل مدعو يده قبل الأكل ، فكان يتقدم الضيف إلى رجل يصب على يده الماء من إبريق فى طست يشبه كلاهما الطست والإبريق اللذين نستعملهما اليوم كل الشبه ، فإذا فرغوا من أكلهم غسلوا أيديهم أيضا كما نفعل اليوم .

أما احتقارنا للفلاح فهو قديم . وقد وردت فى رسوم المقابر الفرعونية مئات الرسوم التى تهزأ به وتسخر منه ، وكان إذا تأخر فى دفع ما على أرضه من

ضرائب أتته جباة الأموال وطرحوه أرضا وأوسعوه ضربا بعصيهم حتى يدفع . أفلم يكن هذا هو النظام المتبع فى جباية الأموال إلى عهد قريب ؟

وهناك مئات من العادات الصغيرة نراها كل يوم دون أن نلقى إليها بالاً . فالمغنى البلدى لدينا والمقرئ وهو يتلو القرآن كلاهما يضع إحدى يديه على خده وهو ينشد . فهذه العادات وردت لها عشرات الرسوم فى الآثار المصرية القديمة. بل إن نفس الزمارة (المزمار) التى يستعملها المغنون فى القرى هى نفسها التى كانت تستعمل فى عصور الفراعنة .

ثم إن التصفيق بالأيدى لمصاحبة الغناء أخذناه عن المصريين القدماء . وكذا «الطرقعة» بأطراف الأصابع عند الرقص ورثناه عنهم أيضا . وكما كان يفضل المصريون القدماء من المغنين والعازفين من كان أعمى لا يبصر ، فإننا لا نزال إلى الآن نفضل من المقرئين من كان كفيف البصر . أما عادة وضع القلم على الأذن التى يزاولها كل يوم مئات من كتبة المحال التجارية والمحصلين وجباة الأموال (الصرافين) فى القرى والأقاليم ، فهى عادة انحدرت إلينا من كتبة قدماء المصريين الذين كانوا يضعون الأقلام على آذانهم .

بل إن عادة إظهار الإعجاب بحسن صوت المغنى أو المنشد أو إظهار الفرح العظيم بأن يلتى الشخص ملابسه أو طربوشه هى أيضا عادة مصرية قديمة . فقد ورد فى نصوص الأهرام وصف لوصول الملك بعد موته إلى العالم الآخر حيث « وجد الآلهة فى انتظاره متدثرين بملابسهم ومنتعلين نعالاً بيضاء ، فما كادوا يرونه حتى ألقوا بملابسهم ونعالهم من الفرح وصاحوا قائلين : « إن قلوبنا لم يدخلها الحبور والفرح إلا عند مقدمك » .

أما ما ندعوه الآن بالسحر فقد ورثناه بأكمله عن المصريين القدماء . فقد اشتهرت مصر منذ قديم الزمان بالسحر ، وإلى الآن لا تعدم قرية من قرانا ساحراً تغدق عليه خيراتها وتضع فيه ثقتها ويستمتع فيها بنفس النفوذ والثقة التى كان ينعم بها سحرة العصور القديمة .

كان المصرى القديم يلجأ إلى الساحر إذا أراد التخلص من عدو . وتخبرنا النصوص أن الساحر كان يعذب هذا الشخص بما يطلقه عليه من أحلام مزعجة وأشباح مرعبة وأصوات مستغربة ، بل إن الساحر كان يسلط عليه الأمراض فتنهك قواه وتهد بدنه . وكان الساحر قادرا على أن يجعل النساء يتركن أزواجهن

ويتعلقن بأذيال من يريد الساحر من رجال ، حتى لو كانوا موضع كرههن من قبل . وكان الساحر يطلب فى مثل هذه الأحوال لكى ينجح عمله أن يُؤتى له بقليل من دم الشخص المطلوب أو قلامة من أظافره أو خصلة من شعره أو قطعة قماش من ثياب يكون قد لبسها ، فإذا حصل الساحر على ما طلب صنع تمثالا من الشمع بشكل الشخص المطلوب العمل له ، ووضع فى التمثال او استعمل فى صنعه الأشياء التى أخذها . فإذا تم له ذلك ألبس التمثال ملابس كالتى يرتديها الشخص نفسه حتى يشبهه تمام المشابهة . ثم يبدأ فى أن يجرى على التمثال طائفة من الأعمال السحرية ؛ فكان إذا دق مسماراً فى التمثال أصيب الشخص بمرض ، وإذا قرّب التمثال من النار أصابت الشخص حمى جنبية ، وإذا طعن التمثال بسكين قُتل الشخص أو جرح . ويظل الساحر يزاول أعماله حتى يقضى على الشخص الذى يريده . وقد ورد فى النصوص أن هذا النوع من السحر قد استعمل ضد الملك رمسيس الثالث ، ولكنه اكتشف الأمر فقبض على هؤلاء السحرة وصادر ماوجده لديهم من تماثيل الشمع التى صنعت بشكله (راجع ورقة هاريس البردية السحرية وورقة تورين البردية القضائية) . أفليس هذا النوع من السحر وعمل التماثيل من الشمع أو الطين وشكها بالإبر والدبابيس هو الذى يستعمله سحرتنا فى القرى والأقاليم الآن ؟

وليس الأمر مقصورا فى ذلك على القرى والأقاليم ، بل إن القاهرة نفسها وهى عاصمة البلاد تعج بمن يعتقدون فيها بالسحر وقوة فعله . ونحن نورد فى هذا المقام فقرة نشرتها جريدة الأهرام فى اليوم السابع والعشرين من شهر يناير سنة ١٩٣٥ قالت فيها تحت عنوان : « تشكو من السحر » : « تقدمت فتاة وطنية إلى البوليس تشكو شابًّا معيناً بأنه دأب على أن يستعمل لها السحر حتى أقض مرقدها ، وطلبت من البوليس أن يحول بين ذلك الشاب وبين أعماله السحرية » .

وكل ما لدينا من غرام بالتمائم والتعاويذ والأحجبة : كحجاب الحب والكره والحفظ ، وآلاف التمائم التى تعلق فى رقاب الأطفال حتى تطول أعمارهم ، كل هذه إن هى إلا عادات ورثناها عن أجدادنا القدماء الذين كانوا لا يسيرون خطوة إلا والتمائم ترافقهم وتحميهم . وزيارة واحدة للمتحف المصرى ترينا آلاف التمائم التى استعملها المصريون القدماء .

ويقرب من هذا اعتقاد العوام منا اعتقاداً جازماً بالعين وقوة أثرها . فأنت

إذا جلست إلى رجل من العوام حدثك كيف أن هناك فئة من الناس لا تكاد ترى شيئاً تعجب به حتى يحصل له حادث ما . ولنا فى ذلك تقاليد غريبة . فإذا توعك طفل عزت أمه انحراف صحته إلى عين الحسود ؛ فتذهب إلى أحد المشايخ وحينئذ يوعز إليها أن تلتقط «ريحة» الطفل ، ثم يكتب لها حجاباً ويعطيها قليلا من « الكسبرة » لتبخر بها طفلها ، ثم توضع « الشبة » الزفرة فى النار ويطوفون خلال ذلك بالمريض حول النار وهم يقولون : « من عين أمك لعين أبوك ، لعين الناس اللى حسدوك ، إن كانت عين مره ، يبتليها بشرشرة ، وإن كانت عين راجل يبتليها بشراشر . يالمبة ، مساء الخير عليك ، فلان منكد رمى نكده عليك » . ثم تأخذ إحدى النساء النار بعد أن تلقى فيها مليماً وترميها من وراء ظهرها إشارة إلى نبذ أذى العين .

وبسبب العين أيضاً نشأت فكرة تعليق الصحون على مداخل المنازل أو قرون الأغنام أو عروسة القمح على الأبواب ، وكذا طائفة من التمائم نراها معلقة على العربات بل على سيارات الأغنياء منا والمثقفين بشكل خرز أو قلائد توضع دفعاً للعين ؛ فهذه الخرافة ورثناها أيضاً عن مصر القديمة . فقد وجد فى مكتبة معبد الإله حوريس فى أدفو كتاب مملوء بالرقى والتعاويذ لطرد العين الشريرة . كما أن هناك أنشودة معروفة للإله تحوت يرجع تاريخها إلى الدولة الحديثة ، وقد ورد فيها ما يأتى : « أيها الإله تحوت إذا كنت تحمينى لم تبق بى حاجة إلى الخوف من العين » .

يعتقد العوام عندنا أن هناك ساعات من النهار بل اياماً مخصوصة لا يحسن بالمرء أن يأتى فيها عملا لأنها منحوسة . فهذا الاعتقاد فى الأيام سعدها ونحسها قديم أيضاً ؛ إذ كان المصريون القدماء يعتقدون أن الأيام تكون سعيدة أو منحوسة طبقاً لما وقع فيها من حوادث سعيدة أو كريهة فى أساطيرهم الدينية ، فاليوم الأول من أمشير الذى رفعت فيه السماء ، وكذا اليوم السابع والعشرون من هاتور الذى عقد فيه صلح بين الإلهين حوريس وسيت وتراضيا فيه على اقتسام العالم ، كانا يومين كلهما سعد وبركة . أما اليوم الرابع عشر من طوبة الذى بكت فيه ايزيس دنفتيس على أوزريس فقد كان يوماً منحوساً . وكان هذا الاعتقاد من القوة فى العصر الفرعونى بحيث إن كثيراً من الأعمال كالبدء فى سفر بعيد أو عقد صفقة تجارية أو ما إليها كان يؤجل من أجل هذه الأسباب .

وما زلنا الآن بعد مضى خمسة آلاف سنة نؤجل أشغالا لهذا السبب عينه .

وقد اعتدنا فى ليلة شم النسيم أن نعلق البصل فوق الأماكن التى ننام فيها أو نضعه تحت الوسادة ، وفى الصباح نكسر البصل ونشمه ، وفى بعض القرى يعلقون هذا البصل على باب المنزل . فهذه العادة مصرية قديمة ؛ إذ كان الناس فى عيد الإله « سكر » إله الموتى فى مدينة منفيس يطوفون حول جدران هذه المدينة وقد علقوا البصل حول رقابهم ، كما كانوا يعلقون البصل أيضاً حول أعناقهم فى الليلة التى تسبق هذا الاحتفال .

كان الطب فى مصر القديمة يختلط اختلاطاً كبيراً بالسحر ، فالعلاج بالعقاقير والأدوية كان يسير جنباً إلى جنب مع العلاج بالرقى والتعاويذ . وقد ورثنا شيئاً كثيراً من قدماء المصريين فى هذا الباب . ففى القرى نجد الشخص إذا مرض لجأ إلى شيخ يزاول السحر ، فيكتب له تعويذة على طبق ، ثم يضع الماء فيه كى يختلط بالكتابة التى عليه ، ثم يكلف المريض بشرب هذا المنقوع لكى يشفى من مرضه . فهذه الطريقة نقلناها عن قدماء المصريين . ولدينا على ذلك الدليل : ففى المتحف المصرى يوجد تمثال من الجرانيت الأسود يقوم على قاعدة ، لكاهن ساحر يدعى زحر اشتهر بما كان يحفظه من الصيغ السحرية لعلاج مختلف الأمراض . فهذا الساحر المشهور الذى لا يشق له غبار فى فنه صنع لنفسه هذا التمثال وغطاه هو وقاعدته بالتعاويذ السحرية الواقية من عدد كبير من الأمراض لكى يستفيد به بنو جنسه بعد موته . فكان إذا أصيب أحدهم بمرض مما نصت عليه التعاويذ ذهب فصب الماء على التمثال فيصبح الماء بعد جريانه على التعاويذ المنقوشة عليه متشبعا بفضيلة التعاويذ . وما على الإنسان بعد ذلك إلا أن يغترف السائل الذى يجرى إلى تجويف القاعدة فيتناوله المريض ويشربه لكى يحصل له الشفاء .

أفليس هذا هو الأصل فى العادة التى ذكرناها ؟ أو ليست فكرة « طاسة الخضة » الموجودة لدينا الآن بما عليها من كتابات ونقوش وآيات ووضع الماء فيها لشربه هى شىء شبيه بما ذكرناه ؟ بل ما أشبه « طاسة الخضة » هذه بإناء من المرمر وجد فى مقبرة توت عنخ آمون حفر على حافته سطر من الكتابة الهيروغليفية يتضمن أدعية للملك وتعويذة لحفظه نقشت فى هذا المكان حتى

تختلط بما يشربه الملك عندما يضع شفته عليها وقت الشرب فتمنحه الصحة والسعادة .

ثم إن الأصل فى تلك الفكرة الغريبة المستهجنة التى تتملك فريقا من نسائنا والتى تتلخص فى أن فلانة عليها شيخ أو عليها عفريت ، لا يعدو الخيال الذى يدل على عقلية سقيمة معتلة من نسائنا أكثر من دلالتها على جسم سقيم أو مرض عضوى . والمسألة فوق هذا وذاك تقليد ورثناه انحدر إلينا ضمن التركة التى خلفها لنا المصريون القدماء . ألسنا نقرأ فى قصص المصريين القدماء قصة أميرة بختن وقد حلت فى جسدها روح شريرة لم يمكن إخراجها من جسدها إلا بعد أن ذهب إليها الإله خنسو بنفسه فأخرجها بقوة سحره ، أو لسنا نقرأ فى هذه القصة نفسها أن هذه الروح قد اشترطت قبل خروجها أن يقام لها احتفال فخم يشترك فيه الإله مع أمير بختن بحضور هذه الروح ، فأقيم الاحتفال وقدمت فيه الهدايا والقرابين والضحايا لهذه الروح أمام الإله خنسو ، فلما أخذت منها بأوفر نصيب ، وعند ما قاربت الحفلة الانتهاء « خرجت الروح ذاهبة إلى حيث تريد » كما تقول النصوص المصرية القديمة . والآن ألا نجد فى هذه القصة المصرية القديمة تفسيرا للمصدر الذى استقينا منه هذه الحفلات الهائجة المائجة التى ندعوها « الزار » ولأولئك « الأسياد » الذين يحلون فى أجسام سيداتنا المصريات .

وهناك صور كثيرة تقع تحت أنظارنا فى كل يوم تطابق أشد المطابقة صوراً مصرية قديمة بتفاصيلها كما وردت رسومها على جدران المقابر . فمنازل الفلاحين فى القرى هى كما قلنا شديدة الشبه بالمنازل المصرية القديمة ؛ فهى تبنى مثلها من اللبن الذى يضرب فى قالب من الخشب بنفس الطريقة التى كان يضرب بها الطوب عند قدماء المصريين ، ثم يُرص فى الشمس ليجف . ونفس المصطبة التى نجدها أمام منازل الفلاحين الآن كانت توجد عند المصريين القدماء أمام منازلهم . بل إن الأخصاص التى نجدها الآن مقامة فى المزارع والحقول وفى جهات متعددة من القرى ، والمصنوعة من سفائف من البوص المطلى بالطين ، هى أيضا كانت ذائعة الانتشار عند قدماء المصريين .

والآن ننتقل إلى صورة أخرى نراها كثيراً مرسومة على جدران مقابر طيبة ، الأقصر الحالية ، وهى صورة حلاق القرية ، وقد جلس على الأرض وأمامه رجل

يحلق له فى الهواء الطلق ، أفليست هذه الصورة بعينها هى التى نجدها فى قرانا الآن ، بل فى كثير من مدننا ، بل فى العاصمة نفسها على إفريز الطريق بجوار سور حديقة الأزبكية .

ونحن إذا سرنا فى القرية رأينا فريقا من الصبية وقد حلقوا رؤوسهم ، ولم يتركوا عليها إلا خصلات متناثرة من الشعر للزينة ، فهذه العادة أيضا أخذناها عن أطفال قدماء المصريين .

والآن فلنقترب من حفلة عرس لنرى ما يدور فيها . فهنا نجد المغنين وقد وضعوا أكفهم على خدودهم عند الغناء كما كان يفعل المصريون القدماء . وعلى مقربة منهم نجد العازفين على الزمارة ، وهى قصبة من البوص طويلة الساق ذات ثقوب تشبه تمام الشبه ما كان يستعمله قدماء المصريين . وهناك نجد طائفة من الراقصات وقد أسرفن فى التكحل وغمرن الخدود بالأصباغ كما تعود أسلافهن من المصريات فى العصر الفرعونى أن يفعلن ، ونجد فى أيديهن نفس الطبلة والدربكة والرق والطار التى كانت تستعملها الراقصات المصريات فى عصور الفراعنة . كما نرى الجمع وقد انتشى بشرب نبيذ البلح ، وهو نفس النبذ الذى كان يفضله المصريون القدماء فى أمثال هذه الحفلات .

ونحن إذا تركنا هذا كله جانبا ويممنا شطر الأراضى المزروعة والحقول الواسعة رأينا فيها ما يدهشنا . فالحقول تقسم الآن إلى مربعات صغيرة لتسهيل ريها بنفس النظام الذى كان يسير عليه المصريون القدماء منذ عصر ما قبل التاريخ . ونجد الحقول وقد انتظمت المحراث وتوارثته عن المصريين القدماء ولم تغير ، مع توالى العصور عليه ، لا من شكله ولا من طريقة استعماله . كما نراها تنتظم الشادوف بشكله المتعارف عند المصريين القدماء أيضا ، يقوم على استعماله الفلاح المصرى الحديث كما كان يقوم سلفه العظيم على استعماله منذ آلاف السنين . فإذا نما الزرع واشتد عوده وآن أوان حصاده ، فطريقة قطعه هى بالمنجل وهو نفس المنجل الذى كان يستعمله المصريون القدماء بشكله المعروف الذى أخذناه عنهم . وطريقتهم فى التذرية هى نفس الطريقة التى نستعملها نحن الآن ، كما أن الأداة التى نستعملها فيها ، وهى المذراة ، هى بعينها لم تتغير منذ عصور قدماء المصريين طبقا لما نراه مرسوما على جدران المقابر .

ونحن إذا سرنا على جسور القرى نرى صفوفا من الرجال والماشية والدواب

وهى تسير فى الأفق البعيد ، فتعيد إلى ذاكرتنا مناظر الصفوف الطويلة المشابهة المرسومة على جدران المقابر والآثار . ومما يزيد هذه الصورة حركة وقوة حياة ما نراه يرفرف فوق رؤوسنا من طيور ، فهنا نجد الإلهة المصرية القديمة نخبيت ترفرف على شكل عقاب . وهناك يطير الإله حوريس على شكل صقر كبير ، وعلى مدى البصر يسير الإله أنوبيس على شكل ابن آوى ، فيختبئ فى الأودية والسهول . وعند موطئ أقدامنا نرى خبر يسير متمهلا فى شكل جعل صغير . وهناك تحت الشجرة المقدسة نرى الإله خنوم يرقد تحت ظلها فى هيئة كبش كبير . وهكذا فى كل جانب من جنبات الوادى وسهوله نرى الحروف والعلامات الهيروغليفية تقفز بيننا ، تذهب وتجئ كأنها نقوش معبد فرعونى قديم قد عادت إليها الحياة فجأة بقوة ساحر عظيم .

وهكذا تتالى أمام أعيننا فى مصر الحديثة صور مختلفة يخيل إلينا معها أن رسوم جدران المقابر قد تحولت فى لحظات إلى رسوم حية و « تابلوهات » مجسمة تنبض بالحياة .

فنحن ، كما رأينا ، نعيش فى نطاق تركة خلفها لنا القدماء ، تشدنا إليها سلسلة من التقاليد والعادات ومختلف الأشياء التى تربطنا بها ربطاً وثيقا لا نجد إلى فصم عروته سبيلا . فنحن كما كنا وسنظل دائما أبناء للفراعنة ، وإنا بهذه التركة بكل ما فيها من محاسن وعيوب لجد فخورين .

محرم كمال